معارك نقدية ...

حاجة المجتمع العربي الى هيغل

بقلم مجاهد عبد المنعم مجاهد

المتأمل في المعركة الفكرية التي نشبت اخيرا على صفحات (الآداب) حول الثقافة الثورية والثورة الثقافية يلاحظ ظاهرة عامة تنتظم جميع المشتركين فيها على شتى انتماءاتهم الايديولوجية ، ماركسية كانت ام قومية ام وجودية ام شخصانية ، تقدمية كانت ام رجعية .. هذه الظاهرة العامة هي ان الجميع في احكامهم (قطعيون) يفتقدون الحس الجدلي ، يفتقدون (الحوار) ، يفتقدون القدرة على اكتساب الخصم وتحويله من موقف (العدو) الى موقف (المتعاطف) او (المؤيد) ان لم يكن موقف المعتنق للرأي نفسه .. يقول القومي للماركسي انا على حق وأنت عميل ، ويقول الماركسي للناصري انا على حق وأنت تابع ذليل ، ويقول الناصري للقومي انا على حق وأنت مهووس مختنق في قوميتك .. لقد اصبح (المختلف) عميلا ، والذي يحاول (الجدال) خائبا .. وبهذا افتقدنا الارض الصحية التي يمكن ان ينمو فيها المواطن في الرقعة العربية برئة سليمة وفكر ناضج من انسانية عميقة ..

داخل المعركة نجد انه اذا لم تدخل العمق السياسي في ابداعك وفكرك فأنت لست (متخلفا) بل انت (عميلا) ، واذا عمل المفكر في جامعة فهو بالضرورة عميل لهذه الجامعة ، واذا كتب في مجلة فلا يعد في نظرهم مسئولا عما يكتب في هذه المجلة فقط بل يعد مسئولا عن كل ما يكتب فيها ..

داخل المعركة نجد انه اما انك شاعر الانسان فلا يحق لك ان تكتب عن المرأة والجنس والحب ، واما انك شاعر هذه الامور فاذا اطللت في قصيدة على ازمة الانسان في رقعته العربية فلا بد ان يوجه الاتهام بانه شاعر يريد ان يركب الموجة ويحصل على اصوات بدأ يفتقدها .

داخل المعركة نجد انه اذا طالب احدهم بالتخصص بأن يظل الشاعر شاعرا والروائي روائيا ، عد هذا انفصالا عن الثورية والثوريين لان الثورية في نظر هؤلاء هي الانخراط السياسي المباشر..

بالاختصار : ان المنطق السائد هو «اما ... او» ، المنطق الصوري هو السائد الان وبالاخص عند المفروض فيهم انهم يأخذون بالمنطق الجدلي ..

وهكذا تتبين الان الحاجة الى منطق جديد .. يعلمنا فن الحوار، يعلمنا فن اتساع افق الرؤية ، يعلمنا الخروج من قطعيتنا ، يعلمنا الخروج من احادية نظرتنا ، يعلمنا ان هناك فرقا بين (المخالف) لنا و(المناقض) لنا ، يعلمنا ان ليس كل مخالف عدوا بالضرورة ، وأن المخالف لنا قد يفيد قضيتنا اكثر من المتحمس الأهوج المتعصب .. اننا محتاجون الى منطق جديد ليس هو «اما ... او» بل «كلا...م»، محتاجون الى منطق يخرجنا من سكونية تفكيرنا ، لنطل على حركيته ، يخرجنا من تضحيتنا بالاستراتيجية من اجل ما هو تكتيكي، يخرجنا من ذبحنا للكل على حساب الجزئي ، يخرجنا من فرحتنا القصيرة بنصر جزئي والتي توقعنا بعد هذا في حزن ابدي ، يخرجنا من ذاتيتنا الى تموضعنا وتشابكنا مع الاخرين ، يخرجنا من فهمنا القاصر من ان الديمقراطية هي رأي الاغلبية الى فهم عميق للديمقراطية من انها رأي الاغلبية مع الانصات لصوت الاقلية ، فالاقلية قد تكون هي المستنيرة وهي الدافعة للحركة والتقدم . انما نحن محتاجون الى منطق جديد يخرجنا من اندفاعاتنا الهوجاء خلف احساسنا الفج ورأينا المبتسر ونزعتنا القطعية المتعصبة .. بايجاز شديد اننا محتاجون الى منطق جديد هو جدل الحرية ..

في هذا الاطار تبرز الان الحاجة الشديدة الى الجدل الهيغلي بصفة خاصة والفلسفة الهيغلية بصفة عامة ، حيث ان التشابكية وارتباط الجزئي بالكل وادراك الصيرورة التاريخية وتبين قوة التناقض في التطور والتوحيد بين الضرورة والحرية هي من اخص خصائص الجدل الهيغلي والفلسفة الهيغلية ..

لكن المتربصين سرعان ما سيصرخون : الجدل الهيغلي نعم ، اما الفلسفة الهيغلية فانها رجعية ، فكيف نكون محتاجين اليها ؟

لكن المتربصين سرعان ما سيصرخون : بل اصلا ما الحاجة الى هيغل ونحن في فكرنا العربي قد تجاوزناه الى الماركسية والوجودية؟

لكن المتربصين سرعان ما سيصرخون : الجدل الهيغلي نعم ، اما هيغل والأفيد لنا ان نبني مصنعا ونشيد مدرسة ابتدائية ، فان هذا اجدى ما دمنا من دول العالم الثالث ؟

لكن هؤلاء المتربصين لو امعنوا التفكير باتزان لتبينوا ان هناك شكا حول رجعية المذهب الهيغلي وأنه يتمشى مع ثورية جدله ، وحتى لو كان هناك تخلف بين المذهب والمنهج فاننا محتاجون في شرقنا الى المذهب ايضا كانموذج نعرفه اولا لا لنحتذيه بل لنتجاوزه .

لكن هؤلاء المتربصين لو امعنوا التفكير باتزان لتبينوا بالتدقيق اننا لم نتجاوز هيغل الى الماركسية والوجودية لانه ليس لدينا سوى شعارات عن ان هذا وجودي وذاك ماركسي وأن المتجه لم يتغلغل بعد ـ الا عند فئة نادرة ـ بحيث يصبح منهم بمثابة اللحم والدم ، ذلك لاننا تجاوزنا هيغل في ضحالة وبلا استبصار .

لكن هؤلاء المتربصين لو امعنوا التفكير باتزان لتبينوا انه ربما بهيغل لامكن ان تكون ثمار المدرسة اعمق ونتاج المصنع اجود واننا لن نخرج من كوننا بلدا من بلدان العالم الثالث الا بتأسيس الفكر العميق وغلغلة الثقافة الثقيلة التي يعد هيغل انموذجا ممتازا لها ..

وهناك قلة في المجتمع العربي ادركت منذ زمن ان الحاجة ماسة في رقعتنا العربية لجدل هيغل الثوري وانه سيساعد من خروجنا من بداوتنا الى آفاق الانسانية والمدنية ، وسيخرجنا من تقوقعنا الى ادراك ان مصيرنا متشابك مع مصير العالم كله وسيخرجنا من احساساتنا البهيمية الى نور العقل ، وسيخرجنا من قطعيتنا الى نورانية الحرية ، وساعتها سنتعلم كيف يأتي الالتزام من داخلنا بارادتنا لا من قوة خارجية حتى لو كانت قوة التعاليم المذهبية ..

وهكذا التقت هذه الفئة القليلة متفرقة دون عمل جماعي مخطط على ضرورة ايصال الهيغلية الى مواطن الارض العربية برؤية جديدة واضعة نصب اعينها مجد هذا الانسان الذي اذا تحرر في رقعته العربية فلن يتحرر الا ان ساهم هو في تحرر العالم كله والذي اذا تحرر في رقعته فلن يكون هذا الا بفضله وبفضل الاخرين المدركين لتشابكية مصير العالم كله .

وهكذا انشغل الاستاذ امام عبد الفتاح امام اكثر من عشر سنين يعد لرسالة ماجستير عن (المنهج الجدلي عن هيغل) وصدرت في العام الماضي عن دار المعارف ، وقامت مجلة (الهلال) في تشرين الاول ١٩٦٨ باصدار جزء من العدد عن هيغل وكانت آنذاك تحت رئاسة تحرير الاستاذ كامل زهيري الذي تبنى فكرة اصدار جزء عن هيغل عرضها عليه الاستاذ ابراهيم عامر ، وأخيرا اصدرت مجلة (الطليعة) ملفها في عدد (ايلول) من العام الحالي عن هيغل تناولت فيه حياته وجدله ورأيه في الحرية وفلسفة التاريخ . وتحت رئاسة الدكتور فؤاد زكريا وادراكا منه لاهمية الدور الذي يمكن ان يلعبه هيغل في فكرنا خصص عدد (ايلول) كله لموضوع «هيغل في القرن العشرين» وقد ساهم كاتب هذه السطور في المجلات الثلاث برؤية خاصة للمفكر الالماني على ضوء احتياجاتنا من خروجنا اساسا من المعتقدية الجامدة . وكلفت مجلة (الكاتب) الدكتور حسن حنفي بكتابة دراسة مطولة للمفكر الالماني وربطه بمجتمع العالم الثالث نشرت ايضا في عدد ايلول .. وقد سبق ان نشرت مجلة (تراث الانسانية) تلخيصات لبعض كتب هيغل منها كتاب (علم المنطق) وكتاب (فينومينولوجيا العقل الكل) و(فلسفة التاريخ) و(فلسفة الحق) وسوف نخصص مقالنا القادم لتلخيص خمسة كتب لهيغل هي : (موسوعة العلوم الفلسفية تلخيص د. زكريا ابراهيم) و(محاضرات حول فلسفة الفن تلخيص كاتب هذه السطور) و(محاضرات حول فلسفة الدين تلخيص د. حسن حنفي) و(الكتابات اللاهوتية الاولى تلخيص محمود رجب) و(محاضرات حول تاريخ الفلسفة تلخيص امام عبد الفتاح امام) .. كما صدرت بضع كتب مترجمة في بيروت ودمشق والقاهرة عن هيغل سوف نعرض لها في مقالنا القادم . اما الان فنتناول ما صدر عن هيغل تأليفا بالتفصيل :

ليس بالرؤية المثالية وحدها يحيا هيغل !!

★★★

وسط ركام الدراسات النقدية الجامعية ذات الابعاد المسطحة، ووسط هزال الابحاث الادبية والاجتماعية والتاريخية التي تخرج كل يوم علينا من جامعاتنا ، تظل الرسائل الفلسفية التي تمنحها هذه الجامعات ـ مهما يكن مستواها ـ بمنأى عن التسطح والتميع والهزالية .. ذلك ان الفكر الفلسفي من طبيعته ان يتعمق الاشياء ويستبطن حقائق الامور ويضرب في الاعماق .. والمصطلحات الفلسفية من شأنها ان تلزم الباحث ان يشق طريقه بجدية ، الامر الذي يتطلب منه جهدا وعناء ، وذلك على عكس ما نجده بالنسبة للمصطلحات النقدية والادبية ، فهي تستخدم الان في اوساط المثقفين ، الامر الذي يسمح بالعبانية هي بغليف للتسطح والتميع ومحاولة الضحك على القراء .. بل اننا لنجد ان اختيار الموضوع نفسه في المجالات الادبية والنقدية والتاريخية والاجتماعية في جامعاتنا بلغ من التسطح مداه حتى اننا نجد رسالة تدور مثلا عن كراسي العشاء المعدنية في عصر المماليك .. وهو موضوع لا ندري مدى ارتباطه بحاجات العصر واهتماماته ، ونجد ان اقسام اللغة العربية بالذات تعطي رسائلها بسهولة تكاد تصل الى سهولة الحصول على شهادة الثانوية العامة..

فاذا جاء باحث واختار لنفسه «المنهج الجدلي عن هيغل» موضوعا لرسالته العلمية في الماجستير تبينا منذ الوهلة الاولى مدى جديته ومدى اهتمامه بحاجات بلده وعصره ، وتبينا ان الامر لديه لم يكن امر حصوله على درجة علمية وكفى ، والا لكان اختار موضوعا سهلا..

فهيغل الذي يعد اهم الفلاسفة المحدثين يعد اكبر الفلاسفة تأثيرا في الفكر الفلسفي المعاصر ، ورغم هذا فهو مهمل لا يدرّس في جامعاتنا اما بسبب صعوبته او بسبب تمجيده المفرط للعقل ، ومعظم الفلاسفة الذين يدرسون في جامعاتنا هم ممن يمجدون الحس والوجدان والحس والنزعة الجزئية كما يتبدى من البراجماتية والوضعية المنطقية والبرجسونية .. وحتى الجوانب العقلية لبعض الفلاسفة اذا ما درست فانها تمتزج بالصوفية والنزعة الحدسية والشخصانية والجوانية ..

ومن هنا فان دراسة هيغل اكبر ممجد للعقل مسألة بالغة الاهمية في ثقافتنا المعاصرة ، والحاجة ملحة لكي نطل عليه .. وهذا هو ما فعله الاستاذ امام عبد الفتاح امام .. بل انه اختار اصعب جوانب هيغل واكثرها عمقا وتعقدا الا وهو الجانب المنطقي ..

ولقد اقبل صاحب الدراسة على موضوعه انطلاقا من ايمانه بالعقل ، ذلك ان «التفسير المقبول هو التفسير الذي يقبله العقل ويرضاه ، والعقل ينشد الضرورة في فهم الظواهر» (ص ١٤) ومن ثم فانه يعلي من شأن العقل وهي مسألة نفتقدها كثيرا في حياتنا الثقافية التي امتلأت بتمجيد الحدس والصوفية ، ومن ثم ينضاف الى جدارة اختيار الموضوع تمجيده للمنهج العقلي .. يقول : «المنهج الفلسفي هو المنهج العقلي او هو المنهج الذي يعبر عن نسيج العقل نفسه» (ص ١٥) .

وتتضح سمات الفكر المنظم الذي يتسم به صاحب الدراسة في انه قسم كتابه الى اربعة اقسام هي : (١) معالم على الطريق ، وقد درس في هذا القسم علاقة المنطق بالجدل والمصادر التي استمر هيغل منها جدله وذلك لرسم صورة عامة واطار للبحث . (٢) شعاب الطريق ، وفي هذا القسم درس علاقة المنهج الجدلي بنظرية المعرفة، كما درس المقولات . (٣) طريق الجدل ، وهنا لب الكتاب حيث عرضه المؤلف بالتفصيل لسير الجدل بتفاصيله الدقيقة كما رسمها هيغل في كتابيه «علم المنطق» والجزء الاول من «موسوعة العلوم الفلسفية». (٤) نتائج وآثار ، وهنا يدرس المؤلف الجدل الماركسي وعلاقته بالجدل الهيغلي ، كما يختم بحثه بالنقد والتقدير لمنهج هيغل في الجدل .. ثم يورد المؤلف قائمة ضخمة بالمراجع التي استند اليها وهي مراجع تتبدى قراءته لها حقا من خلال الاقتباسات العديدة التي اخذ منها والمناقشات الكثيرة التي اجراها مع آراء اصحابها .. ثم نجد قائمة المصطلحات الهيغلية بصفة خاصة ، وهي قائمة هامة للغاية لفهم الكتاب وتتبدى فيها الاصالة الاكاديمية في البحث والمعاناة ، فهو يورد المصطلح الالماني ومقابله الانجليزي ومقابله العربي وشرحا للمصطلح بكلمات تكاد تكون نصوصا من كتب هيغل ثم يختم كل مصطلح بمكان هذا المصطلح داخل صلب الكتاب .. بل انه داخل صلب الكتاب يعالج في التذييلات بعض المصطلحات ويبين الفروق الدقيقة في فهمها والآراء المختلفة التي قيلت بشأنها كما نجد مثلا بالنسبة لترجمة كلمة BEGRIFF

فقد ترجمها بالفكرة الشاملة ولكن بعد مناقشة لمختلف الترجمات الانجليزية ..

ولكن ، ما هو الاساس الذي اقام عليه الدارس بحثه ؟ ان اول ما انشغل به الباحث هو بيان ما اذا كان المنهج الجدلي عند هيغل هو المنطق ام انه شيء اخر غير المنطق .. وهو يستعين بنصوص من كتابات هيغل نفسه ليثبت ان المنهج الجدلي والمنطق امر واحد وخاصة عبارة هيغل الواردة في كتابه «فينومينولوجيا العقل» : «فان طبيعة هذا المنهج يمكن ان تلتمس فيما سبق ان ذكرناه . اما العرض المنظم لهذا المنهج فتلك هي المهمة الخاصة التي يضطلع بها المنطق ، بل هي المنطق نفسه» (ص ٢٨) وقد رتب المؤلف على هذا ان الجدل هو حوار العقل مع نفسه ، انه الفكر وهو يفض نفسه بنفسه .. بمعنى ان المؤلف لم ير ان هناك منهجا وتطبيقا لهذا المنهج في الدراسات العديدة والمجالات المختلفة التي تناولها هيغل ، بل انه اخذ بان المنهج قائم في المنطق فحسب وهذه هي النغمة السائدة في الكتاب برغم ما يقوله ص ١٥ : «وأخشى ما اخشاه ان يظن القارىء وهو يطالع هذا الكتاب ان المنهج الجدلي دراسة للمقولات العقلية الخالصة وكفى ، ولهذا ارى لزاما علي ان اسوق هذا التحذير . ان المنطق ، وان كان يمثل الخطوة الاولى والاساسية في الفلسفة الهيغلية فانه لا بد ان ينتقل الى فلسفة الطبيعة لان مقولاته ان ظلت معزولة وحدها كانت مجرد تجريد اجوف لا يعبر عن الواقع العيني الحي الذي تحلله» .. ان نية المؤلف حسنة فهو لا يريد ان يبعد عن الواقع ، لكنه وهو في حمى البحث نسي هذا واقتصر على توحيد الجدل بالمنهج بالمنطق .

ومن ثم كان الجدل هو حوار للعقل مع نفسه فحسب من الوجود الخالص الى الفكرة المطلقة .. لقد اخذ المؤلف بزاوية مثالية هي ان الجدل هو حركة الفكر ، ولعل هذه الزاوية هي التي فرضت عليه الا يأخذ الجدل في تطبيقاته ومن ثم انحصر في داخل هذه الزاوية ..

وحتى تتضح صورة هذا الجدل الهيغلي يوضح المؤلف اهمية هذا الجدل في تفكير هيغل الذي هالته التناقضات : متناقضات الفكر والواقع على السواء ، ومن هنا يفرد المؤلف صفحات عديدة لتبين مصادر الجدل الهيغلي وهي ثلاثة مصادر : (أ) اللاهوت حين اراد هيغل ان يحل التناقضات بالمحبة التي تجمع الاضداد في وحدة واحدة ثم في الحياة التي هي وحدة حية تتصارع في جوفها الاضداد ..

(ب) الفلسفة ، وهنا يتتبع المؤلف تتبعا دقيقا مصادر هذا الجدل بالتفصيل وخاصة عن هيرقليطس الذي قال عنه هيغل انه ما من فكرة في منطقه الا وهي موجودة عن هيرقليطس واسبينوزا الذي كان يرى ان كل تعين سلب .. وهنا يتبدى جانب هام من هذه الدراسة الاكاديمية في ناحيتين : الناحية الاولى هي مدى الاختلاف والتشابه بين الجدل الهيغلي وجدل السابقين عليه ، والناحية الثانية هي ناحية تبين ان اصالة البحث هي انه راح يتتبع خيوط الجدل الهيغلي من السابقين من خلال تناول هيغل نفسه لهؤلاء السابقين وخاصة في كتابه «محاضرات في تاريخ الفلسفة» .. بمعنى انه كان تتبعا من الداخل ، من داخل المفكر نفسه موضع الدراسة ..

ولا ينسى المؤلف روح العصر وما فيه من متناقضات واحساس هيغل بهذا وبلخص الامر في ان هيغل : «قد نودي من ضمير الغيب ليجعل الرومنتيكية عقلية ، وليجعل عصر التنوير روحيا ، وليجمع في مركب واحد بين الفكر الالماني كله من ليبنتز وليسنج ومندلسون الى هردر وياكوبي وبستالوتزي وهامان . لقد جمع على حد تعبير ولش: بين العاطفة وقوة الخيال اللتين اعجب بهما هردر والدقة العقلية التي يطلبها كانت» (ص ٩٥) . وينهي المؤلف هذا الفصل بأن هيغل لم يضع وسط تأثراته لان المنهج الجدلي كان ابداعه هو .. فما هو هذا الابداع الهيغلي الخاص ؟

«ان المنهج الجدلي يقدم لنا وجهة نظر جديدة عن الكون» (ص١٦)

انه منهج مركب من التحليل والتركيب .. وتتبدّى دقة المؤلف ومدى فهمه لهيغل من ابرازه ان هذا المنهج هو «مركب» للتحليل والتركيب وليس حاصل جمع لهما .. انه يبين بوضوح تام ان هذا المركب هو الاصل ، الوحدة هي الاصل ... والجدل وهو يبدأ بالجزئي والحسي والمباشر يتبين انه في حقيقة الامر انما يسير في كليات ، يسير من الفكر المحض لكي يصل الى الفكر العيني ، وهذا السير عبارة عن العقل وهو يفض نفسه فان «سير المنهج لا يؤدي بنا الى شيء جديد كل الجدة ، وانما يظهر فقط ما كان مستترا او خافيا او ما كان بالقوة بحيث يبدو واضحا وصريحا» (ص ١١٧) .

والكتاب في جوهره يرسم صورة شبكية بفصيلية لهذا السير العقلي الجدلي .. وهو عرض بارع ودقيق وواضح من داخل المؤلفات الهيغلية اساسا ومن خلال التفسيرات العديدة والمتباينة مع اعتناق التفسيرات المثالية وحدها التي تبرز الجدل وهو يشتغل فحسب على حقل الفكر ، والتناقض هو عصب هذا السير الجدلي الذي يجعل الوجود المحض ينتقل الى الماهية ثم الى الفكرة الشاملة ومن ثم نجد اننا «وصلنا اخيرا الى اكتشاف ان التطور كله هو الذي يشكل المضمون ، اعني مضمون الفكرة الشاملة ومضمون العقل الخالص ، وهذه الحركة التي سار فيها التطور هي المنهج الجدلي» (ص ٣١٣) .

وهنا يكون بناء البحث قد تكامل ولا ينقصه سوى تقييم هذا المنهج وهو ما يفعله المؤلف ولكن بعد ان يسبقه بجزء زائد عن البناء المعماري للدراسة بحديثه عن الجدل الماركسي خاصة ، وهو جزء اصيل من ناحية الفكرة التي يعرضها وان كان زائدا عن حاجة الدراسة الا لو افرد فصلا عن الخطوط العريضة للتأثرات الجدلية بهيغل بحيث يكون الجدل الماركسي جزءا من هذا الفصل .. ولقد ابرز المؤلف ان الجدل الماركسي هو عينه الجدل الهيغلي لان الماركسيين لم يأتوا بقوانين جديدة ليست عند هيغل ، وكل الاختلاف قائم في التطبيق على اساس ان هيغل استخدم الجدل بطريقة مثالية على حين استخدمه الماركسيون بطريقة مادية ، ومن ثم «فليست هناك قوانين للجدل الماركسي غير قوانين الجدل الهيغلي ، وبعبارة اخرى ليست هناك قوانين للجدل الماركسي غير قوانين الجدل الهيغلي» (ص ٣٣٦) .. ويذهب المؤلف الى ان المنهج لا شأن له بالمادية والجدلية ، ومن ثم يعلق على قول لينين عندما قال عن منهج هيغل ان فيه كثيرا من المادية وقليلا من المثالية بقوله : «الواقع ان لينين لو ذهب الى ان المنطق الهيغلي يخلو من المثالية والمادية معا لكان في ظننا اقرب الى الصواب» (ص ٣٥٨) .

ثم ينتهي المؤف من نقده الى ان الجدل الهيغلي قد فشل في مهمته الخاصة بكشف حقيقة الوجود لانه وحد ـ في نظر المؤلف ـ بين الفكر والوجود ، الا ان هذا المنهج لا تزال له قيمته وهي في ادراكه المترابط بين الاشياء وعدم اللجوء الى التجريد وان الفكر الحقيقي هو العيني والفاؤه للشيء في ذاته المجهول ودعونه الى دراسة الشيء في تطوره واشارته الى نسبية المعارف كما ان للمعرفة نسقها الكل الواحد ..

وهنا تكون رحلة العقل وهو يفض نفسه قد وصلت منتهاها لكي تتركنا نلقي ببعض التساؤلات ، وهي تساؤلات لا تشير الى مواطن ضعف في البحث بقدر ما تشير الى خصوبة المشكلات التي يمكن استخلاصها من الدراسة والتي يمكن لصاحب الدراسة نفسه ان يطرحها في ابحاثه القادمة او لغيره من الباحثين وأهم هذه التساؤلات :

١ ـ اذا كان هيغل كما اورد في مقدمة كتابه (علم المنطق) قد راعه التباين الحادث بين تخلف الفكر في عصره وتقدم المجتمع المادي، أفلا يقتضي الامر في عرض المنهج الجدلي عنده ان نبين مدى ارتباط العرض المنظم للجدل في المنطق وهذه الملاحظة ؟ بمعنى ان مجرد العرض كما هو وارد في البحث يوحي بأن هيغل انما يشتغل في الفراغ وأنه

ليس مهموما بعصره خاصة وأن صاحب البحث نفسه قد اورد في الباب الاول هموم هيغل بالنسبة للمتناقضات الحياتية ، غير ان المؤلف انساق مع العرض الاكاديمي المحض ونسي ان يربط هذا العرض بهذه الهموم الهيغلية .. بل لقد حذّرنا هيغل نفسه من العناوين والابواب والفصول والاقسام لديه لانها كلها عوارض .. اذن الم يكن الامر محتاجا من المؤلف الى اعادة عجن البحث بصورة تبرز ارتباط الجدل بهذه الصورة بتلك الهموم الهيغلية ؟

٢ ـ يرتبط بهذا ايضا كلامه الذي صبه على الحرية .. ان المؤلف ـشهادةـ لا يفوته شيء وان كان يفوته في الوقت نفسه .. انه يبين ارتباط السير الجدلي عن هيغل بالحرية لكنه يورد المسألة كلها في سبعة اسطر لا غير .. ومن ثم يثار السؤال : هل الحرية عند هيغل فكرة اصيلة ام طارئة ؟ اذا كانت طارئة فيكون الاقتضاب في تناولها من جانب المؤلف مبررا ، واذا لم تكن طارئة وكانت سارية في كتابات هيغل الاخرى غير المنطق افما كان العرض سيتخذ شكلا اخر يقتضي ابراز كل مرحلة من مراحل السير الهيغلي في ارتباطها بالحرية ؟

٣ ـ هل الجدل حقا بهذه الصورة المثالية التي رسمها المؤلف من انه الفكر وهو يفض نفسه او هو حوار الفكر مع نفسه ؟ هل جرّده هيغل حقا من كل ما هو مادي وواقعي ؟ فما هي اذن دلالة كل الامثلة العينية التي يضربها هيغل ؟ وما فائدة اهتمامه بالعيني خاصة وانه يهدف الى ان يكون الفكر عينيا كما يعرف المؤلف نفسه ؟ الم يورد المؤلف نفسه هذه الجملة لهيغل من كتابه (تاريخ الفلسفة) : «الجدل الحقيقي يتطلب الا يكون حركة لذهننا فقط ، وانما حركة تتبع من طبيعة الاشياء ذاتها» ؟ (ص ٥٧) .

٤ ـ اما كان الامر اذن يقتضي دراسة (جدلية) لاقوال هيغل التي تتبدى احيانا مثالية وأحيانا مادية واظهار ما بين هذه الاقوال من علاقة جدلية ؟

٥ ـ الا يرتبط بهذا ان يطرح المؤلف : هل كان هيغل وهو يتناول الجدل (جدليا) ؟

٦ ـ الا يرتبط بهذا ان يطرح المؤلف تساؤلا حول دراسة هو : هل كان تناوله للجدل الهيغلي (جدليا) ؟

٧ ـ لقد كان المؤلف واضحا في تحديد موضوعه ، لكنه لم يحدد هدفه .. لقد حدد موضوعه وهو الجدل الهيغلي ، وحدد ان الجدل والمنطق واحد .. لكنه لم يحدد هدفه الذي يترتب على هذا التوحيد.. ما الذي يمكن ان يستفيده الفكر الانساني عامة والعربي خاصة في العصر الراهن من هذا التوحيد ؟ بمعنى اخر ما هي المشكلة التي يعاني منها المؤلف والتي يفترض انها كانت بطانة هذا البحث الذي كتب من اجلها غير الجهد الاكاديمي العميق المبذول ؟

٨ ـ اما كان الاوفق بدل تخصيص فصل للجدل الماركسي طرح القضية الهامة التي اوردها جان فال في كتابه «درب الفيلسوف» من ان التناقض يلعب دورا عند هيغل اكبر من الدور الذي يلعبه عند ماركس ؟ هل المسألة هي ادراك التناقض في الوحدة ام ادراك الوحدة في التناقض ؟

٩ ـ ان الفكر وهو يفض نفسه في مجالات اخرى غير المنطق، هل تتولد ساعتها قوانين جديدة للجدل ؟ الم يتحدث ماوتسي تونغ في كتابه «في التناقض» عن القوانين العامة والقوانين الخاصة للجدل ؟ وهل ستكون هناك علاقة (جدلية) بين قوانين الجدل العامة وقوانينه الخاصة ؟

١٠ ـ هناك مرور عابر على بعض المشكلات الهامة ـ والاصيلة في نفس الوقت ـ تلقي بتساؤل حول ضرورة طرحها بشكل اعمق وأوفر، مثل قوله ان الانتقال من الوجود الى العدم توصلا للصيرورة لا يتم في الزمان ، فالصيرورة هي مجرد انتقال منطقي .. ومثل هذه الفكرة الهامة والخطيرة معا والتي مصدرها «ميور» في كتابه «مدخل لهيغل» اما كانت تقتضي معالجة تشغل حيزا كبيرا من الرسالة ؟

١١ ـ المؤلف يقع في بعض التناقضات .. فهو ينفي الزمان عن هيغل ثم يعود ويثبته .. يقول ص ١٤٤ «الواقع ان فكرة الزمان ليس لها دور تقريبا في مذهب هيغل» .. ويقول ص ١٤٦ «مذهب هيغل هو مذهب تطوري ينظر الى الكون على انه في تطور مستمر» .. كيف يلفي المؤلف الزمن وهو القائل ص ١٥٩ : «المنهج الجدلي عبارة عن منطق جديد هو منطق الحركة والتغير والتطور في مقابل المنطق الارسطي القديم الذي كان يعبر عن السكون والاستقرار والماهيات الثابتة» ؟ (ص ١٥٩) وهذا متناقض مع ما اورده ص ٣٩٠ : «يمكن ان نشير اخيرا الى ان هيغل اسقط من حسابه عنصر الزمان وهو يحلل سير المقولات» ان المذاهب الفلسفية لا تعمل في فراغ وانما هي تظهر في ازمنة معينة وترتبط بالحضارة التي نشأت فيها» ؟ اما كان الامر يقتضي منه ان يضع تساؤلا حول التفسير المثالي الذي اعتنقه للجدل الهيغلي ؟

١٢ ـ الا تقتضي بعض عبارات هيغل تمعنا اكثر في قراءتها ؟ مثال ذلك جملة هيغل الواردة ص ٢٨ : «فان طبيعة هذا المنهج يمكن ان تلتمس فيما سبق ان ذكرناه اما العرض المنظم لهذا المنهج فتلك هي المهمة الخاصة التي يضطلع بها المنطق ، بل هي المنطق نفسه » .. الا يفرق هيغل في هذا النص من كتابه (فينومينولوجيا العقل) بين (طبيعة) المنهج التي اوردها في الكتاب و(العرض) الذي اورده في المنطق ؟

١٣ ـ الا تلوي الفكرة المسبقة احيانا عنق النصوص ؟ فمثلا لقد اورد هذا النص لهيغل من كتابه «محاضرات تاريخ الفلسفة» : «فكل فلسفة كانت ولا تزال ضرورية ، وبالتالي فليس منها ما اختفى وزال، وانما تجدها عناصر ايجابية في كل واحد ... وآخر فلسفة هي نتيجة لجميع الفلسفات السابقة» (ص ٥٠) اما النص الكامل للعبارة عند هيغل فيجري على هذا النحو : «ان كل فلسفة كانت ولا تزال ضرورية . ومن ثم فلم تمح فلسفة منها ، لكنها كلها محتواة بشكل ايجابي كعناصر في كل واحد . لكننا يجب ان نميز بين المبدأ الخاص لهذه الفلسفات كشيء خاص ، وتحقق هذا المبدأ خلال البوصلة الكلية للعالم . انه يجري استبقاء المبادىء ، وأشد الفلسفات حداثة هي نتيجة كل الفلسفات السابقة ، ومن ثم فلا توجد فلسفة تم دحضها. ان ما تم دحضه ليس هو مبدأ هذه الفلسفة ، بل مجرد ان هذا المبدأ يجب اعتباره نهائيا ومطلقا بالطبع » (محاضرات تاريخ الفلسفة : الجزء الاول ص ٣٧) .

بل ان لوي هذه العبارات يلقي بظلال شكية حول بعض الاقوال مثال ذلك المبالغة التي نجدها وهو يرسم تمجيد انفلز لهيغل .. حتى لقد اورد من كتاب «دحض دورنغ» انه سمى قانون نفي النفي ، قانون نفي النفي الهيغلي وهو تعبير ليس واردا في ص ١٨٧ من كتاب انفلز كما اشار ..

١٤ ـ من الملاحظات الهامة التي يوردها المؤلف ان السير الهيغلي ليس ثلاثيا دائما من الموضوع الى النقيض الى المركب بل احيانا ما يكون ثنائيا ، وهذه القضية الهامة الا تحتاج الى معالجة لتبين اسباب ذلك عن هيغل ؟

ان هذه التساؤلات وهي ترتفع داخلنا انما يرتفع معها ايضا مدى الجهد الضخم الذي بذله المؤلف للتغلب على كل هذه المشكلات فهما اولا ، وسيطرة عليها ثانيا ، وعرضا لها بمصطلح واضح ولغة جلية .. واذا كان هناك بعض الخطأ في الامثلة التي يضربها لشرح التناقض والحد والسلب بحيث يبدو السلب خارجيا من خلال المثل الذي يضربه فيكفي انه في الشرح النظري يدرك تماما ان التناقض باطني وانه حركة الاشياء من داخلها .. واذا كان يضرب مثلا لتوضيح المركب بقوله ان ١ × ـ ١ = ١ ٢ وصحتها ١ × ـ ١ = ـ١ ٢ فانه في الشرح النظري يتبدى عمق فهمه واستيعابه ، ومحاولة للتغلب على عدد كبير من الصعوبات التي نتيقن انها محاولة ستزداد عمقا واصالة واستشراقا اعمق للفكر والحياة مع تقدمه العلمي القادم .

الوجوه الاربعة لهيغل !

من خلال ما خصص عن هيغل في مجلات (الطليعة) ، (الفكر

المعاصر) ، (الهلال) ، (الكاتب) يمكننا ان نتبين في عصر هيغل اربع رؤى هي :

أ ـ الرؤية الحيادية التي ليس لها رأي خاص في المفكر وانما تعرضه بشكل حيادي وهي اما ان تتناول حياته او بعض جوانب فكره وهي :

(١) حياة هيغل الخاصة : سمير كرم ، (٢) عصر الوحدة والعبقرية : د. احمد عبد الرحيم مصطفى (مجلة الهلال) ، (٣) هيغل والديالكتيك : د. مراد وهبة (مجلة الطليعة) ، (٤) هذا الفيلسوف حياته هي كتاباته : جلال العشري ، (٥) هيغل وفلسفة التاريخ : علم ادهم ، (٦) التاريخ والشعور بالحرية : د. حسين فوزي النجار ، (٧) هيغل وفلسفة الجمال : د. اميرة مطر (مجلة الفكر المعاصر) .

ب ـ الرؤية القاصرة عن فهم هيغل فهي رؤية غائمة ضبابية لم تدرك محتويات النصوص التي تقرأها او لا ترجع اليها اصلا وهي :

(١) من هنا ومن الان : ابراهيم عامر (مجلة الهلال) ، (٢) اشعاعات هيغل في انجلترا وأمريكا : عبد الفتاح الديدي ، (٣) الدولة عند هيغل : د. فؤاد مرسي .

ج ـ الرؤية التقليدية في نظرها الى هيغل وهي تنقسم شعبتين: شعبة مثالية تنظر الى فلسفة هيغل نظرة مثالية وهي : (١) كيركفور في قبضة هيغل : امام عبد الفتاح امام (الفكر المعاصر) ومقاله في مجلة الهلال : المنهج الجدلي عند هيغل ، وشعبة مادية تنظر الى فلسفة هيغل على انها مثالية ومن ثم تدينها وهي : (١) قراءة لينين لهيغل : اديب ديمتري ، (٢) هيغل وعلم الفيزياء الحديث لجون وديز يوتيف وبيير تيورين ترجمة سمار جبران ، (٣) هيغل وماركس والفلسفة البورجوازية المعاصرة لاويزرمان ترجمة حسين اللبودي وعبد السلام رضوان ، (٤) هجرة هيغل الى روسيا : د. مراد وهبة (مجلة الفكر المعاصر) ، (٥) فلسفة التاريخ عند هيغل : اديب ديمتري ، (٦) حياته ومذهبه : لطفي فطيم (مجلة الطليعة) .

د ـ الرؤية الثائرة لهيغل بمنظور جديد وربطه بالواقع في الرقعة العربية على اختلاف الاهتمامات والاهداف بين الباحثين وهي : (١) ثورة الجدل الهيغلي : مجاهد عبد المنعم مجاهد ، (٢) هيغل ومشكلة الاغتراب : محمود رجب (مجلة الهلال) ، (٣) هيغل يتحصن خلف قلاع الحرية : مجاهد عبدالمنعم مجاهد (مجلة الطليعة) ، (٤) محاولة لرسم صورة لهيغل ماركس: مجاهد عبد المنعممجاهد ، (٥) هيغلوالفكر المعاصر : د. حسن حنفي ، (٦) هيغل في ميزان النقد : د. فؤاد زكريا (مجلة الفكر المعاصر) ، (٧) هيغل وحياتنا المعاصرة : د. حسن حنفي (مجلة الكاتب) . ولا يبقى بعد هذا سوى قاموس المصطلحات الهيغلية في مجلة (الفكر المعاصر) لامام عبد الفتاح امام ولن نناقشه هنا لان الامر يحتاج الى دراسة ومناقشة متخصصتين ليس هنا مكانهما .. ولا يبقى ايضا سوى جزء مترجم من كتاب هيغل : فينومينولوجيا العقل الكلى ترجمة مصطفى صفوان .. ولن نناقش الترجمة هنا لان هذه الترجمة تثير اشكالات كثيرة على قمتها غرور صاحبها الذى بصدّرها بهذه الكلمة التي يظهر بها انه ورث اسحق بن حنين في الترجمة وانه يتواضع اذ يترجم هيغل الذي يختلف عنه (!!) .. يقول : «هذه الترجمة لا تعنى ان المترجم يحتضن فلسفة المؤلف ، وانما اريد بها اكتشاف طاقات جديدة للغة العربية وتعبيد طرق حديثة من التفكير لابنائها وذلك بعد وقوف دام منذ التركة الارسطوطاليسية وفي وقت يحتم علينا استئناف المسير» وهى كلمة كانت تقتضى من سكرتارية تحرير مجلة (الفكر المعاصر) اما حذفها او الاستغناء عن الترجمة كلية ان اصر صاحبها على هذا الغرور ..

وسوف نناقش الاتجاهات مجملة في خطوطها العريضة متوقفين عند بعضها ، مختصين بعض الدراسات احيانا بالملاحظات الموضعية :

أ ـ الرؤية الحيادية

بصفة عامة تقدم هذه الرؤية هيغل على شكل سرد لاحداث حياته وفي اطار عصره ، فتبرزه على انه معاصر الثورة الفرنسية وحامل ثوريتها لكنه في الوقت نفسه مكبل بقيود المانيا الاقطاعية .. واذا كان جلال العشري يذكر ان لهيغل غراميانه فقد انجب ابنا غير شرعي فانه يتناقض ويقول ان حياة المفكر بلا احداث وهو الخط نفسه الذي اخذه سمير كرم بانه مفكر كل اهتماماته بالعقل وبحياة الفكر .. وهذه الرؤية رؤية قاصرة برغم حياديتها لأنها منفصلة عن الخصب الحياتي والمعلومات والمعرفة التفصيلية للعلوم والسياسة ومجريات الاحداث على نحو ما تتبدى في مؤلفاته .. ولم يشر جلال العشري الى انه استمد معلوماته او بعضا منها على الاقل من كتاب امام عبد الفتاح وكتابي عبد الفتاح الديدي عن هيغل ..

كما تقدم هذه الرؤية بعض جوانب فكر هيغل بشكل تلخيصي لكتبه كما حدث بالنسبة للمقالات التي تتناول فلسفة التاريخ حيث يسرد علي ادهم و د. حسين فوزي النجار رؤية هيغل للتاريخ بانه تقدم الحرية وبركزان على قول هيغل انه في الشرق القديم كان هناك واحد فقط هو الحر ، وفي اليونان والرومان البعض هو الحر اما في الامة الالمانية فالكل يدرك الحرية . ويعتمد علي ادهم على كتاب كولنغوود «فكرة التاريخ» في سرد فلسفة التاريخ عند هيغل وكان امينا ان جاءت سيرة هذا الكتاب في مقاله ..

وتعرض الدكتورة اميرة مطر الى ان الفن عند هيغل هو ارتقاء للحس الى مستوى وسط بين الحس والعقل وتعرضه لتطور الفن عند هيغل على اساس تطور الروح عنده فيجد الفن الرمزي ثم الفن الكلاسي ثم الفن الرومانتي .. اما الدكتور مراد وهبة فانه يلجأ الى طريقة رصد عناوين فصول كتاب هيغل «علم المنطق» ليبرز معنى جدل هيغل لكن القارىء لا يستطيع ان يتبين المقصود من كل هذا مع ان هيغل في كتابه قد ربط الجدل بالحرية لكنه لم يفضح الامر نظرا للطريقة التلغرافية التي يكتب بها الدكتور مراد والتي لا تفيد في ابراز الفكر ولا تفيد في تقييمه بالتالي ..

ب ـ الرؤية الغائمة

هي رؤية لا تفهم نصوص كتابات هيغل وتتمثل بصفة خاصة في كتابي عبد الفتاح الديدي «هيغل» ، «فلسفة هيغل» وقد اغفلنا ذكرهما في مقدمة المقال عمدا .. اذا كانت الهيغلية عقلانية فكيف يصل بها الاستاذ الديدي في مقاله الى ربطها بالفلسفة البراجماتية والادواتية عند وليم جيمس وجون ديوي ؟ بل كيف يجعل من هيغل بقدرته على تنظيم افكاره الفلسفية والمنطقية والتاريخية فيلسوف ادارة وموظفا حكوميا بقوله : «ثورة هيغل ثورة تنظيم وادارة» وفي رأيه ان «الثورة الهيغلية تريد ان تجعل للتنظيم والاعداد والترتيب في كل ابنية الهيئات والجماعات وفي كل الاجهزة وافرع الحكومة اساسا للتكوين الاصلي الدفين الذي لا مانع بعده من الاصطدام بتجارب الواقع مع الثبات والحيطة والاستعداد» .

وكذلك مقال الدكتور فؤاد مرسى عن الدولة ، فواضح من المقال انه لم يرجع الى كتاب هيغل (فلسفة الحق) وانه اعتمد على بعض الكتب التلخيصية الماركسية التي تنقد هيغل وحتى هذا لم يستطع ان يفهمه باستيعاب مثل قوله : يحاول هيغل التوفيق بين المشروعية والاخلاق» وهو يريد التوفيق بين التشريع والاخلاق وكذلك قوله : «انتقد ماركس منهج المضاربة عند هيغل » ولا ندري منهج المضاربةهذا ما المقصود به .. ولا نعرف من مقاله اي شيء واضح عن نظرية الدولة عند هيغل لان الاهتمام مركز عنده على الهجوم عليها ماركسيا ..

ج ـ الرؤية التقليدية

الشعبة الاولى هي الشعبة المثالية والتى تعتبر هيغل فيلسوفا مثاليا ومثال لها امام عبد الفتاح الذي يحاول ان يرد اهتمام كيركفور بالعيني والمفرد والجزئي بانه كان يتم فى اطار هيغل الذي عنى بالمطلق والكل والشامل وعلى اساس ان هيغل مفكر مثالي يقوم جدله على اساس انه العقل وهو يتحاور مع نفسه كما جاء في مقاله في مجلة الهلال وهي نظرة ليست خاطئة تماما لكنها تغفل تشبع هيغل بالحياة والعيني ولو كان نظر الى كيركفور من هذه الزاوية فربما كان انتهى

الى انه يقوم بنفس ما قام به هيغل وأن كل ما في الامر انه فهم هيغل فهما خاطئا من خلال شلنغ على نحو ما اشار في مقالته ..

الشعبة الثانية هي الشعبة المنتشرة في المقالات وهي الرؤية الماركسية لهيغل التي تسلم تسليما تاما بما جاء في الآداب الماركسية من ان هيغل مثالي .. هي نظرة لا نرى ثورة عند هيغل الا في منهجه، اما مذهبه فهو مثالي رجعي يخدم الدولة البروسية.. ومعظم الدارسين في هذه الشعبة لا يرجعون الى كتابات هيغل الا قلة نادرة ، ومن ثم ثم فهي لا تعرف الهيغلية معرفة حقة ومن ثم تقع في اخطاء من مثل ما قاله لطفي فطيم «الضمير الشقي» وصحته «الوعي التعس» والغريب انه اورد الاصل الاجنبي لكنه ترجمه ترجمة خاطئة في اطار الخطوط العريضة المستمدة من الكتب الماركسية المبسطة ..

وعلى العكس من هذا نجد كتابات اديب ديمتري تعود الى بعض كتب هيغل وان كانت تظل متمسكة بالخط نفسه لكنها تحاول التدليل على موقفها .. في مقاله عن فلسفة التاريخ يتبين اهتمام هيغل بالشعب وأن التاريخ هو روح الشعب وأن الجدل هو فلسفة التاريخ وأن التاريخ والعقل يفسر كل منهما الاخر لكنه يتوصل الى ان فلسفة هيغل تظل مثالية ويرى ان العقل عند هيغل لا البشر هو صانع النشاط مع ان العكس هو الصحيح .

واذا اخذنا المقال السوفييتي «هيغل وعلم الفيزياء الحديث» فانه يربط عند هيغل بين المادة والحركة والمكان والزمان على نحو جدلي ويبرز قول هيغل : ما دامت الحركة موجودة فهناك شيء يتحرك لكن هذا الشيء الذي يتحرك هو المادة . والمكان والزمان مملوءان بالمادة .. لكن المؤلف ينتهي الى ان هيغل واقف على رأسه لان هذه النظرة الماركسية التقليدية ..

د ـ الرؤية الثائرة

عين على هيغل وعين على وطننا العربي .. لكن هناك منزلق هو ان (نلبس) كل ما يقوله هيغل لمجتمعاتنا .. المهم ان نأخذ الروح العامة لهيغل .. وأصحاب هذه الرؤية يرون في هيغل لا مفكرا مثاليا بل مفكرا ماديا على اختلاف درجات المادية التي يرونها فيه .. ان محمود رجب يهاجم الصورة الشائهة التي رسمها الماركسيون لهيغل، ويرى انهم «قد قدموه لنا على انه فيلسوف تأملي صاحب افكار مجردة مبتورة الصلة بالواقع ، يفسر العالم ولا يعمل على تغييره ، يبرر الاوضاع القائمة الفاسدة في عصره دون ان ينقدها او يحض على الثورة ضدها» . الا ان هيغل في نظرة خصب ترجع نظراته الى الواقع ، انها ترجع في نهاية التحليل الى رصيد ضخم من التجارب المعيشة» .. وعلى هذا يقسم الاغتراب عند هيغل الى اغتراب مرذول هو ان انتاج الانسان ينقلب ضده ويسلبه انسانيته مثل ان ينتج الانسان تمثالا ثم ينسى انه من خلقه ويعبده والى اغتراب مقبول هو اغتراب انطولوجي وهو اغتراب ابداعي مثل ان انتج تمثالا بمنتهى الحرية اصب فيه امكاناتي .. وللاغتراب عدة انواع وليس قاصرا على الاغتراب الفكري .

ولقد حاول محمود رجب ان يجد من تراثنا وخاصة عند المتصوفة اقوالا تتمشى مع ما يذهب اليه هيغل ، غير ان خطورة هذا قائمة في تحميل نصوص القدامى اكثر مما تحتمل وان كانت المحاولة مطلوبة في حد ذاتها .

ويحاول الدكتور حسن حنفي ان ينفي ما لصق بهيغل من مثالية وأن يعطي لهيغل ابعادا جديدة من خلاف الفكر المعاصر حيث يرى ان «الحاضر يكشف عن الماضي ويجد فيه ما لم يجده الناس فيه . وبهذا المعنى كان برغسون يقول دائما انه اثر في افلوطين لانه يفضل فلسفة برغسون تم التعرف على اشياء جديدة ما كان يمكن رؤيتها اولا فلسفة برغسون» . وقد نفى المؤلف عن هيغل انه صاحب مذهب ورأي انه صاحب منهج ، ونفى عنه انه صاحب تجريد لان فلسفة هيغل نشأت كرد فعل على التجريد ونفى عنه انه صاحب اتجاه عقلي مجرد بل العقل عنده عيني وذهب الى ان الجدل عنده هو جدل الواقع ونفى عنه انه نسي الفرد من اجل الكل ونفى عنه تضحيته بالحرية الفردية لان الحرية عنده ادراك للكل كما نفى عنه الايمان بالقدرية .. ثم تحدث المؤلف عن اوجه الشبه والاختلاف بين هيغل والفكر المعاصر الا انه حصر الفكر المعاصر في الفلسفة الوجودية والفلسفة الفينومينولوجية ولكن هذا خطأ لان الفلسفة المعاصرة اوسع من هذين المذهبين .. ويغيب بحثه انه خال من ايراد النصوص الهيغلية للتدليل وان كان اطار البحث سليما وقد يرجع الامر الى انه اختار رقعة عريضة لبحثه ..

ويهدم الدكتور حسن حنفي كل هذا بجملة واحدة مرت دون تدقيق في بحثه الثاني في مجلة (الكاتب) حيث يتساءل : «فماذا يقول هيغل عن الاسلام والمسلمين باعتباره فيلسوف اديان جعل الدين نقطة البدء او نقطة النهاية في كل تفكيره ؟» الا يتناقض هذا مع مقاله الاخر في هذه الجملة ؟ ورغم هذا فان بقية المقال يتمشى مع اتجاه المقال الاخر الا انه (يلبس) كل جملة لهيغل على الوضع الراهن وهذا يصيب احيانا لكن هناك شططا في هذه الطريقة .. ثم يعود فيتناقض عند الحديث عن رأي هيغل في القومية ويرى انه وقع فريسة النظريات العنصرية ويبدو ان السبب ان بعض النصوص الهيغلية قد عزلت عنده عن سياقها العام داخل فلسفته مما جعل رؤيته تضطرب احيانا والمؤلف ينقصه ان يكبح جماح هذا السيل المتدفق من المعلومات والمعرفة اللتين تخرجان من عنده بكل (عبلهما) وتنقصهما الفربلة ..

ويرى الدكتور فؤاد زكريا انه لكل عصر «حق مشروع في ان يضع الفلسفات التي ورثها في ميزان النقد وهو اذ يفعل ذلك فانه لا يستهدف تحقيق مصالحه الخاصة وحدها بل انه يستجيب بذلك لنداء الفلسفة الحقة ويعمل على تحقيق رسالتها الاصيلة التي هي اثارة الاذهان وحفز العقول على التفكير لا نقل مضمون او محتوى ثابت من المعارف من جيل الى جيل» .. غير ان الدكتور فؤاد يصل الى تفسير وسطي لهيغل فهو يعد فلسفته «واقعية ومثالية في آن معا : فهي واقعية لانها تضم لحظات الواقع كلها وتجعل كلا منها حقيقة فلسفية في لحظة حدوثها ، وهي مثالية لان الاطار الذي تضع فيه الواقع بأسره اطار عقل في اساسه» وواضح انه من اجل هذه المصالحة استخدمت المصطلحات استخداما خاصا يوصل الى هذه النتيجة ..

اما مقالات كاتب هذه السطور فانها تفسر هيغل على انه قام بكل الذي قامت به الماركسية الحقة ، ماركسية ماركس الشاب لا ماركسية ماركس المتصل بأنغلز ، وأنه حصر رسالته في كيف يتحول الانسان العادي الى ثوري قبل الانخراط في الفعل والعمل وقبل محاولة تغيير الواقع ، ومن ثم فان الجدل الهيغلي جدل ثوري جوهره الحرية لان الواقع جدلي والفكر جدلي غير ان جدل الفكر ليس انعكاسا آليا الجدل الواقع والا حدثت خيانة للجدل الهيغلي ، وهذا ما يتيح الحرية ، فجدل هيغل هو جدل الحرية ، والحرية عند هيغل هي الحرية المتفقة مع الحق ، والحق هو الكل ، لا حق فرد او طبقة ، ومن ثم لن تتحقق الحرية عند هيغل الا اذا قضي على الطبقات وتلاشت الدولة ولهذا فان الانسان لا يملك الا ان يتساءل هل كان هيغل ماركسيا قبل الماركسية ؟ وألم يشوه انغلز صورة هيغل بسبب عدم الاطلاع على مؤلفات الشباب لهيغل وبسبب اضطراب رؤيته عندما رأى هيغل يوحد بين مقولتي الهوية والاختلاف وبسبب عدم التفرغ لدراسة هيغل بشكل منهجي وبسبب عدم تناول هيغل في تطوره وبسبب عدم النظر الى ان هيغل كان يعبر احيانا بالرمز في ظل البروسية ؟ وتنتهي دراسات صاحب هذه الكلمات بقوله : «واذا كان هيغل قد تعرض للنقد فعلينا مع هذا ان نردد قولة انغلز نفسه الذي كان احد الذين كالوا لهيغل النقد : (علينا الا ننسى : لقد تحللت المدرسة الهيغلية لكن الفلسفة الهيغلية لم يجر قهرها بالنقد) » .

القاهرة

مجاهد عبد المنعم مجاهد